دمية القصر

جب بخوارزم مذاكيره ... طغرل ذاك الملك الفاني .

وجاد مرو الروذمن جيده ... معصفر مخضبه قان .

والشخص في كندر مستبطن ... وراء أرماس وأكفان .

ورأسه طار فلهفي على ... مجثمه في خير جثمان .

خلوا بنيسابور مضمونه ... وقحفه الخالي بكرمان .

والحكم للجبار فيما قضى ... وكل يوم هو في شان .

فلا تلجج في غمار المنى ... وارض بما يمني لك الماني .

قلت : ولعميد الملك طريقة في الترسل محمودة ومواقفه في البلاغة مشهودة قرأت من خطه كتاباً له إلى القاضي أبي محمد الناصحي محمد بن عبد الله بن الحسين رحمة الله عليه . وانتقيت فصوله وانتقدت فصوصه . فمما استحسنته من ذلك قوله : " وصل كتابه مشحوناً ببر كان أغناه تالده عن مطرفه وكفاه سالفه كلفة مؤتنفه . فجدد عندي نعمة سابغة تباهي قرائن لها سابغة وألبسني جلباباً من الفخر لا تنضيه يد الدهر . وحمدت الله على ما منحني من وده المحروس على العلات وعهده المغروز في حيز الثبات وسألته المحاباة في حوبائه والابقاء على الجسد بإطالة بقائه حتى يلم شعث الإسلام بحسن أثره وتدبره ويقوم زيغ الملك بثقاف نظره وتفكره ولولا ما أوثره من التخفيف عن قلبه المكدود بالمكرمات الدائم فكراً في طرق الخيرات لما أغبته كتبي بتحف السلام ومؤتنف الإعلام والاستعلام . لكني أرى إجمام خاطره أجمل وللترفيه عن نفسه النفيسة أفضل .

وقد جرى في المجلس العالي أعلاه الله من ذكر محاسنة التي تقصر عن نيلها يد البيان ويكل عن وصفها لسان البرهان ما جدد العزائم والرغبات في انتهاز فرصة الامتداد إلى ذلك الصقع . كل ذلك لما يضمره من التيمن بلقائه والتبرك بدعائه الذي بمثله يستنزل النصر من السماء وتتاح الغلبة في مواقف البلاء . والله المدعو لإتمام ما أطبقت عليه العقول وشهدت بصوابه النفوس حتى انتهى إلى ما فرضه الله تعالى من طاعته وتفيؤ ظلال مشايعته . نعم واقتضى الرأي أن تحبس على المدرسة أوقاف تبتاع بالمال من صفو الحلال أو ينصب لها متول يحتمل كلها ويضبط بيد الاحتياط كلها . فأمرني أن أستطلع صائب رأيه وأستشف عين تدبيره ليرشد إلى الوجه الذي يتخذه رائد العزم دليلاً ويسلك به إلى مقصده سبيلاً . ثم التمس أن يشرفها بحضوره في كل أسبوع يوماً إذا طابت نفسه ونشط لذلك قلبه فإن مال إلى الدعة استناب ابنه الشيخ الجليل العالم أبا بكر فهو النجم ابن البدر طلع من أفق السعادة

والشبل ابن الهزبر برز من خدر السيادة . وا تعالى يحرس عليه ظله حتى يخرجه من أنواع الأدب ويدرجه إلى رفاع الرئب .

ومما جال به الخاطر العالي فيه إسداء بر إليه يحمد ثناه بعد أن يكون خالصاً من شبه الحرام عارياً من دنس الآثام . فوقع الرضا الكريم على بغلة شهباء استحسنت شيتها وامتحنت مشيتها فوجدت أسير من الأمثال وأسرى من الخيال قيدت في بعض العساكر المنصورة ببلاد الروم بعد أن خرق بها الصفوف والمواكب ورمى من ظهرها الراكب . وذلك أن بطارقة الروم كانوا يقاتلون على ظهور البغال ويقابلون بها وجوه الأهوال . وأمر أعلى ا أمره أن يقرن ذلك بتشريف للشيخ أبي بكر أيده ا إلى أن يوفق ا تعالى لما أؤمله وبقر عيوناً طالما انتظرت للحق أن يدال وتربصت بالباطل أن يذال والسلام " .

قلت : وقد ملت في هذا الباب عما هو شرط الكتاب وفتلت عناني عن رواية الأشعار إلى سياقة الأخبار وثنيت زمامي عن المنظوم وأنخت ركابي على المنثور كل ذلك لما أعتقده من قضاء حق ذلك المنعم . فقد وا - طوقني قلائد مننه - وقام معي بفروض الود وسننه . واستمر على منهاج البر وسننه ولم يهمل رسمه في الإسعاف مع تحليق رتبته ولا نسي المألف الخشن عند لين معيشته أفرغ ا عليه في عقباه سجال نائله الغمر وسقى أيامه السالفة حيثما سقطت من الدهر بمنه وسعة طوله إنه جواداً كريم رؤوف رحيم .

فصل في شعر إبلخ